الفصل الرابع

الفخر الحماسى

فطر العربى على الحماسة كما فطر عليها كل إنسان ، وذلك أن حب الحياة حمل الناس على النزاع فى سبيل الحياة ، وإذا الأرض ميدان واسع لتنازع البقاء ، وإذا الناس اثنان : غاز ومغزو ؛ أو هم بالحرى تارة مغزوون وطوراً غازون . وهم فى كل حال جماعة جلاد وقتال ، يقوم فيما بينهم من يبوق لذلك القتال ، ويدعو إليه ، ويبث الحماسة فى صدور الأبطال ، أو يسجل المواقع بكلام منظوم هو الشعر الحماسى . وهذا الشعر الحماسى نشأ عند جميع الشعوب نشأة بدائية مقطعة الأوصال ، يرافق نبضات القلوب ، وغضبات السيوف ، ثم راح مع الأيام ، عند الشعوب المتقدمة فى سبيل المدنية والوعى ، يصور دامى الذكريات وروائع المشاهد ، ويتغنى بالبطولات القومية ، ويعلق أطرافها بأعمال بطل من الأبطال ، ويضخم المواقف ، ويرفعها إلى أجواء الخوارق ، فى قصص مملوء بالحياة ، وفى وصف رائع الألوان ، وهكذا كانت الملحمة .

ولأكثر أمم الأرض ملاحم شعرية سطرت فيها الأمجاد القومية ، وخلال العظمة التى ورثها الأبناء عن الآباء ؛ فلأمة اليونان إلياذة هوميروس وأوذيسته ، وفيهما إحياء الحرب الطروادية مضخمة ، ولأمة الرومان إلياذة فرجيليوس وفيها ذكر مغامرات البطل إيناس جد روموس ورومولوس ؛ ولأمة الهنود ملحمة الرامايانا للشاعر ڤالميكى فى ثمانية وأربعين ألف بيت من الشعر ، وفيها الشىء الكثير من تاريخ الهند القديم ؛ ولهم أيضاً ملحمة المهابهارتا فى نحو مائة ألف بيت من الشعر ، ولأمة الفرس شاهنامة الفردوسى وهى سفر تلك الأمة وسجل أعمال

الأكاسرة وأعمال أبطال فارس ، ولأمة الألمان ملحمة النيبيلونغاليد وهى من آثار القرن الثالث عشر للميلاد . وقد دارت حول بطولات الفتى المغوار سيغفريد وحول مغامراته الغرامية ، ولأمة الفرنسين ملحمة رولان التى ضمت مجد فرنسة فى عصورها القديمة .

وهكذا كان لكل أمة من تغنى بأمجادها ، وهكذا كانت الملحمة قصة شعرية لأعمال بطولة خارقة . ولئن فات العرب أن ينشئوا ملحمة ، وأن يقوم فيما بينهم من يجمع شعرهم الحربى ويربط بين أجزائه ، وفى وحدة عمل قصصى ، وفى وحدة هدف وغاية . ولئن حال دون ذلك ، عند العرب ، قلة انطلاقهم وراء التخيلات الميثولوجية والخوارق الغيبية ، وضعف صبرهم على الحديث الطويل والرواية التى تطلب جلداً وتحليلاً وإعمال فكر وسعة خيال ، وخروجاً عن حيز الذات والمنفعة القريبة المنال ، ولئن حال دون ذلك عندهم انصراف شعرائهم إلى استخدام الشعر للتعيش عن أقرب سبيل ، وإلى جعل الأدب فى خدمة البلاط والمناسبات ، فلم يفتهم أن يخوضوا المعارك بأقلامهم ، وأن يسردوا القصص الحربى ويصفوا مواقف القتال ، وأن يجعلوا أنفسهم على المسرح مفاخرين ، متوثبين ، منفعلين ، على غير سنة الملاحم التى تطلب من الشاعر أن يكون راوية يروى أعمال غيره . وأن يسير العمل من وراء الستار .

وهكذا ، إن حرم الأدب العربى الملحمة المشبهة للملاحم الأمم المشهورة ، فلم يحرم تلك الملحمة الكبرى من الشعر الحماسى ، إلا أن تلك الملحمة مقطعة الأوصال ، قد اشترك فى وضعها عدد لا يحصى من الشعراء ، وقد عمل على جمع شتاتها عدد من الأدباء من مثل أبى تمام والبحترى وغيرهما ، فى دواوين كبرى تورد القصيدة أو المقطوعة إلى جنب القصيدة أو المقطوعة ، من غير ما واصل إلا واصل الجوار والموضوع الواحد . ولو أتيح لتلك القصائد من يؤلف ويربط لكان للعرب من عنترة الفوارس ، وجساس بن مرة . وكليب بن ربيعة ، والحارث

ابن ظالم، وغيرهم أشباه آشيل وأغا ممنون عند اليونان ، ورستم والأسفنديار عند الفرس ، ورولان عند الفرنسيين .

ولا سيما — على حدّ قول زكى المحاسنى — « وإنّ فى المعلقات الجاهلية العشر ، وفى سائر ما نظم الشعراء الجاهليون ، لمما يتنخل منه ملحمة عربية كبرى قيلت فى الجاهلية . لأن خواطر أصحابها الشعراء متقاربة ، بل تكاد تكون متحاذية ومتشابهة . وقد يضؤل الشبه بين كثير من خواطر الشعراء الجاهليين فتبدو صورهم الفنية مماثلة كل التماثل . فلدى طرفة بن عبد مقطوعات فى معان جاء بمثلها امرؤ القيس ، كما أن لديه أبياتاً هى ذاتها عند ضريعه تتغير قوافيها فحسب ، وإنّ فى وحدة معايشهم وطبيعة أرضهم المتشابهة ، وانبساط آفاق الرمل بين أعينهم ، وتظللهم تحت الخيام ، وعيشهم الراتب على المدر والحجر وفى الوبر ، لمما طبعهم جميعاً على غرار واحد ، فألف بين مثالات معانيهم وخواطرهم ، وضروب تصورهم ، مع اختلاف قليل فى أساليبهم . على أن البصير فى أساليب المعلقات العشر ، واجد فيها شبهاً فى النسج والمعنى ، مما يساعد على الأخذ بهذه النظرية التى أقول فيها باحتمال التأليف لملحمة عربية جاهلية . . . تمثل فروسية الجاهلية ، وتذكر حروبها وأيامها بالتسلسل والترتيب . . . فللعرب فى جاهليتهم وإسلامهم مواقف قلّ مثيلها عند الأمم المحاربة القديمة ، وفى تشمير الجاهليين للحرب ليل نهار ، وغاراتهم الهاجمة التى ما حفلوا معها الموت ، ما لا يقل عن مثيله عند غيرهم من الأمم التى عاصرتهم أو تقدّمتهم فى الزمن . . . ولن يكون للعرب ملحمة واحدة مقصورة على الحروب الجاهلية ، فإن تاريخهم الحربىّ الذى نبه إليهم الأمم المجاورة وأخافها منهم وبسط سلطانهم على القلوب ، قد بدأ منذ عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، فكان للعرب قصة حرب تبدأ من غزوات الرسول ، ثم تنحدر إلى حروب الفتوح فى ديار فارس ، وأرض الروم ، وسائر الأقطار التى بلغ إليها العرب بسيوفهم حتى تبلغ شتات شملهم وتوزّع سلطانهم فى أواخر العصور » .

الحماسة فى الجاهلية

(١) دواعى الحماسة الجاهلية :

للشعر الحماسى فى الجاهلية دواع كثيرة ، منها أن البدوى وليد الصحراء يعيش فى أكنافها ويواجه مخاطرها ، ويتقلب بين قسوة السماء ولهيب الرمضاء ، أمل عيشه فى أنعام يضطرب فى الأرض من أجلها ، ويتوقع الأمطار ليروى عطشها ، فيرتحل من مكان إلى مكان فى مجاهل يرتعش كلؤها فى سراب خداع ، حتى إذا زاحمه غريب على الماء والكلأ هاجمه ؛ وإذا هنالك كر وفر ؛ وإذا هنالك جلاد وصراع . ودماء تسيل معها الأرواح ! وإذا هنالك طلب الثأر وإعداد العدة للانتقام ! وإذا هنالك تآلف وتحالف ، وتناد للحرب بين البطون والقبائل ؛ وإذا هنالك أخيراً صولات وجولات يتصادم فيها الأبطال ، وتتعانق فيها السيوف والنصال . وتتعالى فيها أصوات الرجال وهمهمات الخيول والإبل ، وتنطلق ألسنة الشعراء مدوية ؛ معددة للمكارم والمفاخر .

ومن دواعى الشعر الحماسى أن البدوى شديد الحفاظ على الشرف والجار ، فإن تعدى عليهما أحد ، أوقد نار الحرب والقتال ، وأذكى بذلك القرائح ، ففاض الشعر فى أسلوب ملحمى هدار .

وهكذا كان الداعى إلى الحماسة كل ما كان داعياً إلى الحرب ، وهكذا كانت كل حرب وكل غزاة ؛ وكل تعد وكل مناوأة ، سبباً من أسباب الفيض الملحمى الذى رافق تاريخ العرب فى مختلف أطواره . وهكذا أخيراً كانت أيام العرب فى الجاهلية محور شعرهم ، ومدار أقوالهم . ولتلك الأيام تاريخ طويل ، وهى ترجع إلى أيام العرب والفرس ، وأيام القحطانية فيما بينهم ؛ وأيام القحطانيين

والعدنانيين ، وأيام ربيعة فيما بينها ، وأيام ربيعة وتميم ، وأيام قيس فيما بينها ، وأيام قيس وكنانة ، وأيام قيس وتميم ، وأيام ضبة وغيرهم .

أما أيام العرب والفرس فأشهرها يوم ذى قار وهو لبكر على العجم ، وقد التق جيش الأكاسرة بجيش العرب فى بطحاء ذى قار ، وذو قار ماء لبكر قريب من الكوفة ؛ وكان جيش الفرس مؤلفاً من ثلاثة آلاف عربى : ومن ألف من الأساورة على رأسهم الهامرز ، وألف آخر من الأساورة على رأسهم خنابزين ، ومن عدد كبير من الحلفاء والموالين ؛ وكان جيش العرب مؤلفاً من بنى عجل فى الميمنة وعليهم حنظلة بن ثعلبة ، ومن بنى شيبان فى الميسرة وعليهم بكر بن يزيد ابن مسهر ، ومن أفناء بكر فى القلب وعليهم هانئ بن مسعود . وقد دارت الدائرة على الفرس ، وقد اتبعتهم بكر يقتلونهم بقية يومهم وليلتهم ، حتى قضوا على من قضوا وشردوا من شردوا . ومن الأناشيد الحربية والأراجيز الحماسية التى تناشدها العرب فى ذلك اليوم وحض بها بعضهم بعضاً على القتال : ما قالته امرأة من عجل من بنى شيبان :

إنْ تَهْزِموا نُعانِقْ ونَفْرِشِ النَّمـارقْ[1]
أَو تُهزَموا نُفارق فراقَ غيرِ وامقْ

إلى غير ذلك من الشعر الذى ينطلق دفعاً دفعاً ، ويصور بلفظه وموسيقاه ، مواقف الشدة وحركات الهجوم ، وومضات الأسنة ، والتحام الأبطال بالأبطال ، وانفجارات الصدور والنفوس . وهذه المقاطع الشعرية أشبه شىء بمقاطع الإلياذة ، فى وصف هجوم الطراودة والتحام القتال بينهم وبين الإغريق .

وأما أيام القحطانيين فيما بينهم فأشهرها يوم حليمة للحارث الأعرج بن

(١) النمارق ج نمرقة وهى الوسادة الصغيرة أو الطنفسة فوق الرحل .

جبلة، ملك العرب بالشام ؛ على المنذر بن المنذر بن ماء السماء، ملك العرب بالحيرة.

وأما أيام القحطانيين والعدنانيين فمن أشهرها يوم حجر لبنى أسد على حجر والد امرئ القيس الشاعر المشهور ، وأخبار ذلك اليوم معروفة متداولة فى كتب الأدب ، لما للملك الضليل من أهمية فى أدب الجاهلية .

وأما أيام ربيعة فيما بينهم فأشهرها حرب البسوس التى دارت بين بكر وتغلب ابنى وائل . وقد دامت أربعين سنة . وإن فى حرب البسوس من المواقف ، وإن فيها من الشعر ما هو أشبه شىء بمواقف إلياذة هوميروس وشعرها . وحرب البسوس — على حد قول سليمان البستانى فى مقدمة الإلياذة — « حرب تناقل العرب أخبارها وتناشدوا شعرها . على ممر القرون حتى أيامنا هذه ، وصاغوها بقوالب شتى لا يصلح قالب منها لصوغ الملاحم التامة كالإلياذة . ومع هذا فإن جميع ما قيل فيها من الكلام المنظوم أقرب نسبة إلى الشعر القصصى منه إلى الموسيقى ، فكل قصيدة منها قطعة من ملحمة . ولكن تلك القطع غير ملتئمة لفقدان اللحمة بينها . فهى كالحجارة المنحوتة قد أحكمت صنعتها ، وبقيت ملقاة فى أرضها غير مرصوصة بالبناء . ثم إذا نظرت إلى أشهر الرجال والنساء فيها ، رأيتهم جميعهم شعراء ؛ فكليب يقول الشعر ومثله زوجته جليلة ، وأخوه مهلهل . وكذلك مرة شاعر ، وابنه جساس شاعر ، وكل ذى شأن فى القصة من غريب وقريب شاعر ؛ كالحارث بن عباد وجحدر بن ضبيعة » .

ومن الأناشيد الحربية والقصائد الملحمية التى قيلت فى حرب البسوس قول مرّة مخاطباً ابنه جساس :

فإنْ تكُ قد جنيتَ علىَّ حرباً ... تغصُّ الشيخَ بالماءِ القراحِ

جمعت بها يديك على كليبٍ ... فلا وَكِلٌ ولا رثُّ السِّلاحِ[1]

---

(١) الوكل : العاجز .

ولكنّى إلى العَلّاتِ أَجرى   إلى الموتِ المحيطِ مع الصَّبَاحِ [١]
وإنّى حين تَشْتَجِر العَوالى   أُعِيد الرُّمحَ فى إِثْرِ الجِرَاحِ [٢]
شديد البأْسِ ليس بذى عَياءٍ   ولكنّى أَبوءُ إلى الفَلاحِ
سأَلبَس ثَوْبَها وأَذُبُّ عنها   بأَطْرَافِ العوالى والصِّفَاحِ [٣]
فما يَبْقَى لعِـزَّتِهِ ذليل   فَيَمنَعه من القَدَرِ المتَاحِ
فإنى قد طرِبْتُ وهاجَ شوقى   طرادُ الخَيْلِ عارِضَة الرِّماحِ
وأَجمَل من حياةِ الذُّلِّ موتٌ   وبعضُ العارِ لا يمحوه ماحِ

ومن ذلك أن الحارث بن عباد أرسل إلى المهلهل وقال : إن كنت قتلت بجيراً بكليب ، وانقطعت الحرب بينكم وبين إخوانكم ، فقد طابت نفسى بذلك . فأرسل إليه المهلهل: إنما قتلته بشسع نعل كليب . فغضب الحارث ودعا بفرسه – وكانت تسمى النعامة – فجز ناصيتها وهلب ذنبها [٤] . ثم قال قصيدة منها :

كلُّ شىءٍ مصيرُه للزَّوالِ   غيرَ ربِّى وصالح الأَعْمالِ
وترى النَّاسَ ينظرونَ جميعاً   ليسَ فيهم لذاكَ بعضُ احتيالِ
قُلْ لأُمِّ الأَغَرِّ تبكى بُجَيْرًا   ما أَتى الماءُ من رؤوسِ الجِبَالِ
لهفَ نَفْسِى على بُجَيْرٍ إذا ما   جالتِ الخَيْلُ يومَ حربٍ عُضالِ
وتســاقى الكُمَاةُ سُمًّا نقيعاً   وبَدا البِيضُ من قِبابِ الحِجالِ

---

(١) بنو العلات : بنو رجل واحد من أمهات شتى .

(٢) تشتجر : تتداخل .

(٣) الصفاح : السيوف العراض .

(٤) هلب ذنبها : نتفه .

وسَعَتْ كلُّ حرَّةِ الوَجْه تدعو ... يا لبَكْرٍ ! غَرَّاءَ كالتِّمْثالِ
يا بُجَيْرَ الخيراتِ لا صلْحَ حَتى ... نملأَ البِيدَ من رؤوسِ الرِّجالِ
وتقرَّ العيون بَعْدَ بُكاهَا ... حينَ تسقى الدِّما صدورَ العَوالى
أَصْبَحَت وائلٌ تعجُّ من الحر ... بِ عجيجَ الجِمَالِ بالأَثقالِ
لا بُجَيْرٌ أغنى قتيلاً ولا ره ... ط. كُليبٍ تزَاجروا عن ضلالِ
لم أَكُنْ من جُنَاتِها- عَلِم الله - ... وإنى بحرِّها اليومَ صَالِ
قد تَجنبْتُ وائلاً كى يُفيقوا ... فأَتتْ تَغْلِبٌ علىَّ اعتزالى
وأَشـــابوا ذُؤابتى ببُجَيْرٍ ... قتلوه ظُلْماً بغَيْرِ قتالِ
قتَلوه بشِسْع نَعْلِ كلَيْبٍ ... إنَّ قَتْلَ الكريم بالشِّسْع غالِ
يا بَنِى تَغْلبٍ خذوا الحَذْرَ إنَّا ... قد شربْنا بكاسِ موتٍ زُلالِ
يا بنِى تَغْلبٍ قتَلْتُم قتيلًا ... ما سمِعْنَا بمثلِه فى الخَوالى
قرِّبا مَرْبِطَ النَّعامة منِّى ... لقِحَت حرب وائلٍ عن حيالِ [1]
قرِّبا مربط النَّعامة منِّى ... ليسَ قَوْلى يُرَادُ لكن فَعَالى
قرِّبا مربطَ النَّعامةِ منى ... جَدَّ نَوْحُ النساءِ بالإعْوَالِ
قرِّبا مَرْبطَ النَّعامةِ منِّى ... شابَ رأْسِى وأَنْكَرَتْنِى العوالِى
قرِّبا مربطَ النَّعامةِ مِنِّى ... لِلسُّرى والغُدُوِّ والآصَالِ
قرِّبا مربطَ النَّعامةِ منِّى ... طالَ ليلى على الليالى الطِّوالِ
قرِّبا مربطَ النعامة منِّى ... لاعتناق الأَبطال بالأَبْطَال

---

(١) عن حيال : أى أن حرب وائل هاجت بعد سكون .

قرِّبا مَرْبطَ النعامةِ منِّى ... وَاْعْدِلا عَنْ مقالَةِ الجُهَّالِ
قرِّبا مربطَ النعامةِ منِّى ... ليس قَلبى عن القِتَال بِسَالِ
قرِّبا مربطَ النَّعامة منِّى ... لَمَّا هبَّ رِيحُ ذَيْلِ الشّمالِ
قَرِّبا مربطَ النعامةِ منِّى ... لبُجَيْرٍ مُفَكِّكِ الأَغْلالِ
قرِّبا مرْبطَ النعامةِ منِّى ... لكريمٍ متوَّجٍ بالجمال
قرِّبا مرْبط النعامةِ منِّى ... لا نَبيعُ الرِّجالَ بَيْعَ النِّعَالِ
قرِّبا مربِطَ النعامة منِّى ... لِبُجَيْرٍ فداه عمِّى وخالى
قرِّباها لحىِّ تَغْلِبَ شُوساً ... لاعتناقِ الكُمَاةِ يَوْمَ القِتَالِ (١)
قرِّباها وقرِّبا لأْمَتى دِرْ ... عًا دِلَاصاً تردُّ حَدَّ النِّبالِ (٢)
قرِّباها بِمُرْهَفَاتٍ حِدَادٍ ... لِقِرَاعِ الأَبطالِ يَوْمَ النزَالِ
سائِلُوا كِنْدَةَ الكرامَ وبَكْرًا ... وَاسْأَلُوا مَذْحجاً وحَىَّ هِلَالِ
إذْ أتَوْنَا بعَسْكَرٍ ذى زُهاءٍ ... مُكْفَهِرٍّ الأَذى شَديدِ المَصَالِ (٣)
فَقَرَيْنَاهُ حينَ رامَ قِرَانَا ... كل ماضى الذبابِ عضبِ الصِّقالِ (٤)

وهكذا ترى أن مثل هذا الشعر ، وإن كان بادى النحل فى بعض أجزائه ، هو شعر الحرب بكل ما فى الكلمة من معنى ، هو شعر الثورة الدموية ، والغضبة البدوية الكريمة ، هو الانتصار للشرف والإباء ، وهو الحلم فى فورة البأس ،

---

(١) الشوس ج أشوس وهو الجرىء .

(٢) الدرع الدلاص : اللينة الملساء .

(٣) ذى زهاء : ذى عدد كبير .

(٤) ذباب السيف : حده .

والبأس فى انتفاضة الحلم . وما أشبه هذا المشهد بمشهد « دون دياغ » فى رواية السيد لكورنيل المسرحى الفرنسى الشهير ! وما أروع هذا البحر الشعرى فى مثل هذا الموقف ! وما أروع الألفاظ المتدافعة ، المكرورة فى تدافعها الحربى ، الموقعة على نبضات القلب ، والتى تحمل فى طياتها هدير الهاوية ، وجلبة الموت العميقة ! . . .

وأما أيام ربيعة وتميم فمن أشهرها يوم ذى طلوح لبنى يربوع من تميم على بكر من ربيعة .

وأشهر أيام قيس فيما بينها يوم « داحس والغبراء » وقد قيل فيها شعر كثير وهى حرب السباق بين عبس وذبيان ، وكانت الحرب بينهما سجالاً وانتهت بصلح .

وقد اشتملت أيام المريقب ، وذى حساء ، واليعمرية ، والهباءة ، وفروق ، وقطن . ولهذه الحرب روايات كثيرة فى كتب الأدب منها أن الورْد العبسىّ زار يوماً حُذيفة بن بدر الذبيانى ، فعرض عليه حذيفة خيله ، فقال : ما أرى فيها جواداً مُبرا . فقال له حُذيفة : فعند من الجواد المبرّ ؟ فقال : عند قيس ابن زهير . فقال له : هل لك أن تراهنى عليه ؟ قال : نعم ! قد فعلت . فراهنه على ذكر من خيله وأنثى . ثم إنّ ورداً العبسى أتى قيس بن زهير وقال : إنى قد راهنتُ على فرسين من خيلك ذكر وأنثى ، وأوجبت الرهان ، فقال : ما أبالى من راهنت غير حُذيفة . فقال : ما راهنت غيره . فقال قيس ! إنك ما علمت لأنكد .

ثم ركب قيس حتى أتى حذيفة فوقف عليه ، فقال له حذيفة : ما غدا بك ؟ فقال : غدوتُ لأواضعك الرهان . فقال حذيفة : بل غدوت لتغلقه[1] . فقال قيس : ما أردت ذلك . فأبى حذيفة إلاّ الرهان . فقال قيس : أحيرك

(١) أغلق الرهان : أوجبه .

ثلاث خلال ، فإن بدأت واخترت قبلى ، فلى خلتان ولك الأولى . وإن بدأت فاخترت قبلك فلك خلتان ولى الأولى . قال حذيفة : فابدأ . قال قيس : الغاية من مئة غلوة[1] . قال حذيفة : فالمضمار[2] أربعون ليلة ، والمجرى من ذات الإصاد[3] .

ففعلا ووضعا السبق على يدى أحد بنى ثعلبة بن مسعد . ثم ضمروا الخيل ، فلما فرغوا استقبل الذى ذرع الغاية بينهما من ذات الإصاد . فانتهى الذرع إلى مكان ليس له اسم . فقادوا الخيل إلى الغاية وجعلوا السابق الذى يردُ ذات الإصاد ، وأجرى قيس داحساً والغبراء ، وحذيفة الخطار والحنفاء . وملأوا البركة ماء ، وجعلوا السابق أوّل الخيل يكرع فيها . وأقام حذيفة رجلاً من بنى أسد — وبنو أسد أحلاف ذبيان — فى الطريق ، وأمره أن يلقى داحساً فى الطريق ، فإن جاء سابقاً ردّ وجهه عن الغاية . فلما أرسلت الخيل سبقها داحس سبقاً بيناً والناس ينظرون ، فلما هبط داحس فى الوادى عارضه الأسدى فلطم وجهه فألقاه فى الماء ، فكاد يغرق هو وراكبه ولم يخرج إلاّ وقد فاتته الخيل . وأما راكب الغبراء فإنه خالف طريق داحس لما رآه قد أبطأ . ثم عاد إلى الطريق ، واجتمع مع فرسىْ حُذيفة ، ثم سقطت الحنفاء ، وبقى الخطار والغبراء . ثم إن الغبراء جاءت سابقةً ، وتبعها الخطار ، ثم الحنفاء ، ثم جاء داحس بعد ذلك والغلام يسير به على رسله ، وأخبر الغلام قيساً بما صُنع بفرسه . فطالب قيس بالسبق — وكان عشرين من الإبل — فأبت بنو فزارة أن يعطوهم شيئاً . فقالت

---

(١) الغلوة : الرمية بالنشابة .

(٢) المضمار : وقت للأيام التى تضمر فيها الخيل للسباق أو للركض أو للعدو ؛ وتضميرها أن تشد عليها سروجها ، وتجلل بالأجلة حتى تعرق تحتها فيذهب رهلها ، ويشتد لحمها ، ويحمل عليها غلمان خفاف يجرونها ، لا يعنفون بها ، فإذا فعل بها ذلك أمن عليها البهر الشديد عند حضرها ، ولم يقطعها الشد .

(٣) ذات الأصاد : نقيرة فى حجر يجتمع فيها الماء ، وهى فى ديار بنى عبس .

بنو عبس : أعطونا بعض سبقنا . فأبوا . فقالوا : أعطونا جزوراً ننحرها ونطعمها أهل الماء ، فإنا نكره القالة فى العرب . فقال رجل من فزارة : مائة جزور وجزور واحدة سواء ، والله ما كنا لنقرّ لكم بالسبق علينا ، ولم نُسبق . فكان ذلك سبب دماء فيما بين القبيلتين ، ثم سبب حرب ضروس أبلى فيها عنترة العبسىّ بلاءً حسناً ، وقد انتهت بصُلح قام على يدى الحارث بن عوف وهرم ابن سنان ، وقد مدحهما زهير بن أبى سلمى فى معلقته التى أتى فيها على ذكر تلك الحرب وويلاتها[1] .

وأما أيام قيس وكنانة فمن أشهرها يوم الكديد لبنى سليم (بطن من قيس عيلان) على كنانة . والكديد موضع على اثنين وأربعين ميلاً من مكة . ومن أبطال ذلك اليوم الشاعر المشهور دريد بن الصمة . وأما أيام قيس وتميم فمن أشهرها يوم رحرحان لعامر على تميم ، ورحرحان اسم جبل قريب من عكاظ ، ثم يوم شعب جبلة بنجد لعامر على ذبيان وتميم . وقد قال أبو عبيدة معمر ابن المثنى : « يوم جبلة أعظم أيام العرب » وذلك لما اتخذ فى هذا اليوم من الحنكة والحكمة ، وسديد الرأى والحيلة وحسن التنفيذ . وقد وصف المعقر البارقى — وكان قد شهد الوقيعة — ذلك اليوم المشهود ، وما أتى به الأبطال من جليل الأعمال ، فى أبيات منها :

ضَرَبْنَا جميلَ البَيْضِ فى غمرِ لجّةٍ ... فلَم يَنْجُ فى النَّاجينَ مِنْهُمْ مُفَاخِرُ

هوى زهْدِمٌ تحتَ العجاجِ لعامرٍ ... كما انْقَضَّ بازٍ أقْتَمُ الريشِ كاسِرُ

يُفَرِّج عنَّا كُلَّ ثَغْرٍ نخافُه ... مُشِيحٌ كسِرْحانِ القصيمةِ ضامِرُ

وكُلِّ طَمُوحٍ فى العِنانِ كأنَّها ... إذا اغتَمَسَت فى الماءِ فَتخَاءُ طَائِرُ

---

(١) عن كتاب « أيام العرب فى الجاهلية » .

تلك أيام العرب ، وقد كانت من أشد دواعي الشعر الحماسي ، بل كانت ينبوع الملحمة الجاهلية الكبرى ، ومستوحى الفخر العربي في قديم عصوره . وقد قامت فيها النساء إلى جنب الرجال يشاركنهم أعمال بطولتهم ، ويقفن في مؤخرة الجيوش يصفقن بالدفوف ، وينشدن الأهازيج ، وينظمن أحياناً الشعر في وصف المعارك ، واشتهر منهن كثيرات من مثل « الهيفاء القضاعية » القائلة :

الخيلُ تَعْلَمُ يومَ الرَّوْعِ إنْ هُزِمت   أنَّ ابن عمرٍو لدى الهيجاء يَحْميهَا

(ب) موضوعات الحماسة الجاهلية :

دار الشعر الحماسي في الجاهلية حول وصف المعارك ، ووصف أعمال البطولة ، ثم وصف الخيول والإبل ، وأدوات الحرب وما إلى ذلك . وقد برع الجاهليون في وصف المعارك وتصويرها حية نابضة مملوءة بالهول ، كما برعوا في وصف أدواتها . فالميادين فسيحة الأرجاء ، وأحياء العرب في لغط وضوضاء ؛ يقوم فيها المنادون ينادون إلى الحرب ، ويدعون إلى القتال ، لأن الشرف قد ديس ، أو لأن الدم المهراق يطلب الثأر ، أو لأن المراعي قد اغتصبت ، أو لأن المواشي قد سيقت ، أو لأن فرس فلان قد سبقت فرس بعض أبناء القبيلة ، أو لأسباب أخرى ألحقت للقبيلة عاراً ، ونشرت في الحي ذلا وصغاراً . يا للعار ! يا لبني فلان ! الحرب ! الحرب ! . . . وها هي ذي القبيلة كلها في غضب وثورة ؛ فالنساء في زغردة ، والأطفال في دمدمة ، والرجال في همهمة ، والصدور في انفجار ؛ والخيول في صهيل ، تضرب الأرض بالحوافر ، وترفع الرؤوس في عنفوان ؛ والإبل في هدير وعجيج ، والهوادج قباب تلو قباب ، والحسان فوق الهوادج بدور ، وأناشيد فخر وعزة قومية ، والفرسان على الصهوات نسور وعقبان ، والهندوانية بتارة تحمل في شفارها الموت والدمار ، والعوالي غابات ممتدة فوق الرؤوس ، تتلوى في شغف إلى امتصاص الأرواح ، والآمال فوق

الرماح أعلام خفاقة . القبيلة جماهير جماهير ، والأحلاف جماهير جماهير ، والمقاتلة جماهير جماهير ، والهول والموت جماهير جماهير ، يبدو رئيس القوم على فرس أخف من النسيم ، فيذهب ويجيء ، ويتفقد ويستعرض ، ثم ينطلق إلى ساحة الوغى ، وإذا الفرسان وراءه كتائب كتائب ، وإذا صدى الحوافر ، وصليل الأسلحة ، وإذا صفعات الأخفاف زمزمات تشق الغبار وتملأ الأجواء ، يلتقى الجيشان فيتصاولان ويتجاولان فى كر وفر ، وإذا الرماح فى الصدور والنحور ، والسيوف فى الأعناق والرؤوس ، والدماء تسيل على الرمال صباغاً قرمزيًّا ، وتتناثر على صدور الخيول فتحمحم ، وعلى وجوه الأبطال فتزيدهم شراسة وهياجاً ، وإذا السماء اربداد وقساطل ، تشقها الارتجازات والزغردات شقًّا . ثم ينجلى الموقف عن عدو مهزوم ، وعن شرف مصون ، فيعود رجال الحرب زرافات زرافات ، وإذا القبيلة وأحلافها فى عيد ، ثم فى تأهب لعراك جديد .

وهكذا كان الجاهليون يصفون الأبطال بالشدة والشجاعة والبأس ، ويصفونهم بقوة الساعد ، وقوة الشكيمة ، والعناد فى الصدام ، ورجاحة العقل فى الكر والفر ، والحيلة فى مواقف الشدة ، والعفة فى تقاسم الغنائم ، والبديهة فى المآزق الضيقة ، والكرم فى كل حال . وكانوا يصفون الخيول بالسرعة والخفة وشدة الانقضاض ، ويشبهونها بالعقبان والظباء والنعام والريح ، ويستحسنون فيها الضمور ، والملاسة ، ومتانة الساقين ، وقوة الجنبين ، وطول الذنب ، واستقامة العسيب وما إلى ذلك مما يرجع إلى النشاط والسرعة . وكانوا يصفون عدة الحرب بما كان يصفها به غيرهم من الشعوب القديمة ، فيذكرون للسيف بلاءه فى حز الرقاب ، وقصم الظهور ، وقطع الدروع ، وذكروا للرمح التماع سنانه ، وأنه أزرق كأنياب الغول ، يخترق الصدور ويدمى النحور .

(ح) ميزات الحماسة الجاهلية :

قال الدكتور زكي المحاسني : « طول مشاهدة العرب للمعارك أكسب شعراءهم دقة وصفها وحسن تصويرها ، وهل كانت المعارك فى حياة العرب إلا مناط عزهم ومدار فخرهم، يردونها ولا وجه أمامهم سوى الموت . لقد رخص كل شيء لديهم من حطام الدنيا ، ولم يكن من حطامها بين أيديهم سوى قليل . وغلا لديهم كل ما رافق المروءة والشهامة ، فكانت شجاعتهم أدعى لهم إلى الحرب . على أنهم لم يطرحوا سداد الرأى ، وإنما كانوا فى حروبهم يقلبون أوجهه ليصلوا إلى أيها الأسد ، ولم يكن وصف شعرائهم للمعارك وصفاً مطولاً يأخذ بالكلام من أوائله حتى ينتهى إلى أواخره كما تدعو الحوادث ، فليس لديهم قصائد تمسك بأوائلها حتى تبلغ نهايتها ، فتريك صورة معركة منذ بداءة الوقعة إلى ختامها ، وإنما هى فترات شعر فى لمحات وصف مقتضبة متجزئة ، يتبين فيها الروح العربى البيانى الذى انطوى ، منذ كان ، على الاختصار فى سرد الصور ، أو الزهد فى التقصى ، ونحن إذا وجدنا منها مطولات فى موضوع الحرب ووصف المعارك ، فإنا لا نجد فيها وحدة متناسقة فى الموصوفات المتشابهة . ولقد يتاح لنا بعد عصر الجاهلية أن نلم بقصائد كاملة ، يصف شعراؤها المعارك التى شهدوها أو قيلت لهم ، ولكنها قليلة، وسبب ذلك حب الانطلاق من قيد المعانى والانفلات من استقصائها ؛ لضيق القافية الراتبة واتساع المعانى المتوالدة ، إذ كان يؤثر الشاعر العربى الخروج من موضوع إلى آخر ، ومن صورة لم يكمل وصفها إلى غيرها من الصور . . . ولقد أحاط شعراء الجاهلية بأوصاف السلاح وعدة الحرب بما لم تحط به أمة من أمم الحرب . فحذقوا الكلام عليها ، وأجالوا البيان فى وصف آلاتها ، وأكثروا من العناية بتصورها وتصويرها ، حتى ألموا بدقائقها وأشكالها . وكان هذا الشعر الواصف للعدة والسلاح شغل شعراء العرب الشاغل ، ودأبهم فى

استنباط التشابيه ، وتوليد أفانينها واستقصاء روائعها ، حتى صار ما قالوه فى أوصاف السلاح وعدة القتال تراثاً أدبياً فى شعرنا العربى نكاثر فيه آداب الشعوب . . .

وإننا إذا تتبعنا ألفاظ لغة العرب وتقصينا جملها وتراكيبها ، واستقرأنا تعابيرها فى المجاز والاستعارة ، وسائر فنون البلاغة — كما عرفت على رسلها فى الجاهليه قبل أن تستولى عليها الكلفة فى تتابع العصور الإسلامية — وجدنا أن لغة العرب لغة حرب وضرب ، وطعان ونزال ، فى أروع بيانها وأبرع تشابيهها[1] » .

(د) نماذج من شعراء الحماسة الجاهلية :

إن من استقرى الشعر الجاهلى وجد أن للحماسة فيه محلاً واسعاً جداً ، وشعر أن الحماسة ملء الأفواه والأسماع ، وذلك أن الشعراء لذلك العهد كانوا ينهضون ، كسائر الناس ، بعبء القتال ، وقد عدّوه جزءاً من حياتهم ، وبات من العار لديهم أن يموت المرء حتف أنفه ، كما بات من غذائهم اليوم أن يتحدثوا عن القتال ، وأن يصفوا المعارك ، وأن يتفاخروا بالأيام . وإنه ليطول بنا المجال لو أردنا ذكر أسماء شعراء الحماسة ، فكيف بنا لو أردنا الكلام على شعرهم ، ولذلك سنقتصر على بعضهم ، وفى ذكر القليل غنى عن التفصيل والتطويل .

الفند الزمانى :

كان أحد فرسان ربيعة المشهورين ، وقد شهد حرب بكر وتغلب وله من العمر نحو مائة سنة . وإليك أبياتاً من قصيدة قالها فى حرب البسوس . وذلك أن بكر بن وائل بعثوا إلى بنى حنيفة فى حرب البسوس يستنصرونهم ، فأمدوهم به وبقومه بنى زمان وعدادهم فى بنى حنيفة ، فقال :

---

(١) شعر الحرب فى أدب العرب ، ص ٢٧ ، ٣٢ .

صَفَحْنَا عَنْ بَنِى ذُهْلٍ ... وقُلْنا القَوْمُ إخْوانُ
عسى الأَيَّامُ أن يرجِعْـ ... ـنَ قَوْماً كالَّذِى كانوا
فلمَّـــا صرَّحَ الشَّرُّ ... فَأَمْسَى وَهْو عرْيانُ
ولَمْ يَبْقَ سِوى العُدْ ... وَانِ دنَّاهم كما دانوا
مَشَيْنا مِشْـــيَةَ اللَّيْـ ... ـثِ غَدَا ، والليثُ غَضْبانُ
بضَرْبٍ فيــه توهِينٌ ... وتَخْضِيعٌ وإقْـــرَانُ
وطَعْنٍ كفمِ الزِّقِّ ... غَدَا والزِّقُّ ملآنُ
وبعْضُ الحِلْمِ عِندَ الجهْلِ ... للذِّلَّةِ إذعانُ
وفى الشَّر نَجَاةٌ حـ ... ـينَ لا يُنْجِيكَ إحْسَانُ

هذا شيخ جاهلى ، قد تقلبت عليه الأيام بحلوها ومرها ، ودارت عليه دوائر الزمن ، وجال فى الحروب جولات وجولات ، وكان السيف لساعده نصيراً ، وكان الرمح لعزمه ظهيراً ؛ وقد دعى للحرب وهو فى شيخوخته فلبى الدعوة لأنّ الشر قد صرح ، ومشى فى قومه مشية الليث الجائع الغضبان ، ونظم فى ذلك شعراً حربيًّا يحمل فى وزنه وقافيته صدى الهجوم الصاعق ، ويحمل فى ألفاظه حكمة الشيخوخة ، وصرامة البطولة ، وعنفوان الجاهلية .

الحصين المرى :

والحصين بن الحمام المرّىّ شاعر جاهلى وفارس مذكور يعد من أوفياء العرب . ومما يروى من أخباره أنه كان ناس من بنى قضاعة يقال لهم بنو سلامان ابن سعد حلفاء لبنى صرمة بن مرّة ونزولاً فيهم ، وكان بنو حميس بن عامر حلفاء لبنى سهم بن مرّة ، وكان فى بنى صرمة يهودىّ من أهل تيماء يقال له جهينة ، وكان فى بنى سهم يهودىّ من أهل وادى القرى يتاجر فى الخمر ، وكان بنو جوشن

أهل بيت من عبد الله بن غطفان جيراناً لبنى صرمة ، وكان يُتشاءم بهم ، ففقدوا منهم رجلاً ، يُقال له حُصين كان يقطع الطريق وحده ، فكانت أخته وإخوته يسألون الناس عنه وينشدونه فى كل مجلس وموسم ! فجلس ذات يوم أخ لذلك المفقود فى بيت ذلك اليهودىّ المجاور لبنى سهم يبتاع خمراً ، إذ مرّت أخت المفقود تسأل عن أخيها ، فقال لليهودىّ : نشدتُك الله ودينك هل تعلم لأخى علماً ؟ فقال : لا ودينى لا أعلم . فلما مضى تمثل ذلك اليهودىّ :

لعمرك ماضلت ضلال ابن جوشن　　　حصاة بليل ألقيت وسط جندل

وأراد أن الحصاة يمكن أن ترجع وأن هذا لا يرجع أبداً . فلما سمع أخوه ذلك تركه حتى إذا أمسى الليل قتله . فأتى الحصين وقيل له إن جارك اليهودىّ قتله أبو جوشن جار بنى صرمة . فقال : اقتلوا اليهودىّ الذى فى جوار بنى صرمة فأتوه فقتلوه . فوقع بذلك الشر بينهم وقاتلهم الحصين وهزمهم ، وكف يده بعد ما أكثر فيهم القتل . وأبى بنو سلامان أن يكفوا عن القوم حتى أثخنوا فيهم وأجلبت بنو ذبيان وبنو محارب بن خصفة على بنى سهم مع بنى صرمة . فأقاموا على الحرب فظفر بهم الحصين وهزمهم وقتل منهم ، وقال هذه الأبيات :

فقُلْتُ لَهُمْ يا آلَ ذبيانَ مالَكُمْ　　　تَفَاقَدْتُمُ ، لا تُقدِمونَ مُقدَّمَا (١)

مواليكُمُ مَوْلَى الولاَدَةِ مِنهُمُ　　　ومَوْلَى اليمينِ حابِسٌ قد تُقُسِّما (٢)

وقُلْتُ تَبَيَّنْ هل تَرَى بَيْنَ خارِجٍ　　　ونَهْيَ الأَكُفِّ صارخاً غَيْرَ أَعْجَمَا (٣)

---

(١) تفاقدتم : جملة اعتراضية ، وهى دعاء عليهم بأن يفقد بعضهم بعضاً . مقدماً : تقدماً أى إقداماً .

(٢) المولى يطلق على معان كثيرة ، وقسم الشاعر فى هذا البيت الموالى إلى بنى عم وهم الذين سماهم مولى الولادة ، وإلى حليف وهو من انضم إليك فعز بعزك وهو الذى سماه مولى اليمين لأنه يقسم له عند الانضمام . . يقول : تداركوا الذين يتصبون بولاء النسب وولاء الحلف فكل منهم ذو حبس على الشر متقسم الحال مغار عليه .

(٣) خارج : ماء لبنى عبس . نهى الأكف : موضع . الصارخ : المستغيث . الأعجم : الذى لا يفصح .

مِنَ الصُّبْحِ حتى تَغرُبَ الشمسُ لا ترى ... مِنَ الخَيْلِ إلَّا خارجيًّا مُسَوَّمَا (١)
عَلَيْهِنَّ فِتيانٌ كَسَاهُمْ مُحرِّقٌ ... وكان إذا يَكْسُو أجادَ وأكرَما (٢)
صفائِحَ بُصْرى أَخْلَصَتْها قيونُها ... ومطَّرِدًا من نَسْجِ داود مُبْهمًا (٣)
ولَمَّا رأَيْنا الصَّبْرَ قد حِيلَ دونَهُ ... وإن كان يوماً ذا كواكبَ مُظْلِمَا (٤)
صَبرْنا وكان الصَّبْر مِنَّا سجِيَّةً ... بأَسْيَافِنا يقطَعْنَ كفًّا ومِعْصَمَا
نُفَلِّقُ هاماً مِن رجالٍ أعزَّةٍ ... علَينا وهُمْ كانوا أعقَّ وأَظْلَمَا (٥)
ولمَّا رأَيْتُ الودَّ ليسَ بنافِعي ... عَمَدْتُ إلى الأمر الذى كان أحْزَمَا
فلسْتُ بمُبْتاعِ الحَياةِ بذِلَّةٍ ... ولا مُرْتقٍ مِنْ خَشيَةِ المَوتِ سُلَّمَا

الُحصين بن الحمام المرىّ يحارب أيضاً لأن داعى الشرف دعاه إلى ذلك ، وعنده الميتة الحسنة على ما يتعقبها من الأحدوثة الجميلة آثر من العيشة الذميمة على ما يخالطها من الذلّ . إنه يحارب بحزم وجلد ، وهو يصف حربه بإيجاز شديد ، وإذا الحرب عنده خيل مسوّمة كثيرة العدد ، عليها فتيان بدروع دقيقة الصنعة وسيوف بتارة ، وتفليق لهامات الأبطال ، وإذا شعره حكاية حال ،

---

(١) الخارجى من الخيل هو الذى برز وأبواه ليسا كذلك . المسوم : المعلم بعلامة يعرف بها يشير بهذا البيت إلى كثرة الخيل والرجال .

(٢) محرق : أحد ملوك لخم حرق قوماً فسمى محرقاً .

(٣) الصفائح : السيوف ، وقد نصب على أنها مفعول « كسا » فى البيت السابق . بصرى : موضع بالشام تباع فيه السيوف . القيون : الحدادون . المطرد : الدرع المتتابعة النسج . يقول : كساهم محرق سيوف بصرى التى أجيد صنعها وكساهم أيضاً دروعاً متتابعة النسج خفيات الحلقات لدقة صنعها .

(٤) وإن كان يوماً : أى وإن كان ذلك اليوم يوماً . يقال : أراه الكواكب نهاراً ، لاحتجاب الشمس فيه من الغبار أو لشدة الأمر وعظم الخطب .

(٥) يقول : نشق رؤوس رجال أعزة علينا ولكن الذى حملنا على قتالهم إنما هو ظلمهم وعقوقهم.

وإبداء لآرائه فى الحياة والموت ! وإذا هو فى كل ذلك شاعر بدوىّ مستميت فى سبيل الشرف والإباء .

المهلهل :

هو عدى بن ربيعة التغلبى ، خال امرئ القيس الشاعر المشهور ، وهو بطل من أبطال حرب البسوس ، وقد أسر فى نهاية الأمر ومات فى أسره . وأكثر شعره فى رثاء أخيه كليب وفى توعد الأعداء وما إلى ذلك . وأدبه هو أدب العاطفة التى تغالى فى وصف الأخ ووصف الهول ، وتعتمد التكرار والتهديد الطفولى وطلب المستحيل فى غير منطق ولا تحليل ، وذلك كله تارة فى جو ملحمى من الشعر الحربى ، الذى تتقاذف ألفاظه ، ويتعالى دوى حوافر أفراسه ، وطوراً فى أجواء من الميوعة هى موسيقى خمر ونساء . وأدب المهلهل هو أدب حرب وحماسة ، وأدب عاطفة وتكرار ، وأدب سهل الأسلوب وسهل التعبير . والمهلهل هو بطل فى الحرب وفى اللهو ، وقد نسجت حواليه أسطورة الزير ، فلا عجب أن دس فى شعره أبيات كثيرة ليست له ، قد تكون سبباً من أسباب الضعف والهلهلة والإسفاف فى أدبه .

الحماسة فى المعلقات :

إن من يقرأ المعلقات يلمح أن فيها ناحية ملحمية كما فى سائر الشعر الجاهلى ، وإننا سنجتزئ بذكر ثلاث من تلك المعلقات ، وفيها شاهد كاف على ما نقول وما نحن فى صدده : معلقات عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة بن شداد .

عمرو بن كلثوم هو أبو الأسود بن مالك التغلبى ، وأمه ليلى بنت المهلهل . نشأ عزيز الجانب أنوفاً معجباً بنفسه أشد الإعجاب ، وساد قومه وهو ابن

خمس عشرة سنة ، وقاد الجيوش مظفراً . ولما قامت المشاحة بين بكر وتغلب واحتكموا إلى عمرو بن هند ، وقف عمرو بن كلثوم مدافعاً عن قومه ، وما إن فرغ من إنشاد قصيدته حتى ظهر له أن هوى الملك مع بكر ، فانصرف وفى نفسه ما فيها . ثم خطر فى نفس بن هند أن يكسر من أنفة تغلب بإذلال سيدها عمرو بن كلثوم ، فدعاه هو وأمه ليلى . وأغرى هنداً أمه أن تستخدمها فى قضاء أمر ، فصاحت ليلى : « واذلاه ! يا لتغلب ! » فسمعها عمرو بن كلثوم ، فثار به الغضب وقتل ابن هند فى مجلسه . ثم رحل توًّا إلى بلاده بالجزيرة الفراتية ، وأضاف إلى معلقته قسما بين فيه سخطه على عمرو بن هند.

وإنا لنشعر ، ونحن نقرأ معلقة ابن كلثوم ، أننا أمام مشهد يشبه مشهد أخيل يخاطب هكطور فى لهجة الناقم ، فى لهجة الشجاع الباسل الذى يتدفق تدفق السيل الجارف ، فى لهجة من تملأ من المجد وقام فى قومه مقام السيد ، وحمل فى نفسه ماضياً زاخراً بالعزة ، حافلاً بالقوة ، وحاضراً تتعانق فيه السيوف والرماح وتجرى فيه الدماء سيولاً ، ومستقبلاً يقوم على جماجم الأعداء صروحاً تظلل الأبناء إلى أبد الدهر .

وإننا نلمس فى هذه المعلقة أن أدب ابن كلثوم هو أدب الثورة والجماح ، أدب الانفعال الشديد الذى لا يحد منه العقل ، فقصيدته اندفاع على غير هدى ، وعلى غير استقامة فى التفكير والتنسيق ، وأفكاره متدافعة ، متقاذفة ، مكررة ، تسبح فى عالم من الخيال الجامح الذى يغلو ويغرق فى الغلو .

أما الحارث بن حلزة اليشكرى البكرى فهو الذى وقف فى وجه عمرو بن كلثوم يوم الاحتكام إلى عمرو بن هند ، ودافع عن قومه بقصيدته المعدودة من المعلقات ، والتى وصف فيها الحرب ومزج فى الوصف صهيل الخيل بصلصلة الصوارم ، بعجيج الأبطال ، بأصوات الماشية ، بثورة الطبيعة كلها . وشعر ابن حلزة خطابى ملحمى ، يرمى إلى الإقناع ، ويعتمد سرد القصص البطولى ، وذلك

فى جو من الموسيقى الشديدة الوقع ، التى تدوى فى هدوء وانطلاق ، وتماشى العقل والشعور والخيال ، فتزيدها قوة وعمق تأثير .

وعنترة بن شداد : هو عنترة بن شداد العبسى أحد فرسان العرب وأغربتها وشعرائها المشهورين .

ولما كانت حرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان كان عنترة قائد الكتائب وخائض الغمرات ، وكان البطل الذى تناولت الأسطورة أعماله فجعلت منه المثال الأعلى فى الفروسية والبطولة . وقد حفز عنترة على أعمال البطولة ، فوق ما حفزه ، رغبته فى استرضاء عبلة ، ومحو سواد الجلد ببيض الفعال . وشاخ عنترة بن شداد وهو أبداً رجل الخيل والسيوف والرماح ، وقد مات قتلا نحو سنة ٦١٥ للميلاد .

[وَرَد فى كتاب « الشعر والشعراء » لابن قتيبة ما يلى : « كان عنترة من أشدّ أهل زمانه وأجودهم بما ملكت يدُه . وكان لا يقول من الشعر إلا البيتين والثلاثة ، حتّى سابَّه رجُلٌ من بنى عَبْس ، فذكر سواده وسواد أُمّهِ وإخوتهِ ، وعيَّره بذلك وبأنَّه لا يقول الشعر . فقال له عنترة : والله إنَّ الناسَ ليتراقَدُونَ بالطُّعْمة فما حَضَرْتَ مرْفَدَ الناسِ أنْتَ ولا أبوكَ ولا جدُّكَ قطّ ، وإنَّ الناس ليُدْعَوْنَ فى الغارَات فيُعرفونَ بتسويمهم ، فما رأيناك فى خَيْلٍ مُغيرةٍ فى أوائل الناس قطّ ، وإنَّ اللَّبْسَ ليكونُ بيننا ، فما حضَرْتَ أنْتَ ولا أبوك ولا جَدُّك خُطَّة فَيْصل ، وإنَّما أنْتَ فَقْعُ نَبتٍ بقرْقر وإنّى لأَحتضر البأْس ، وأوافى المَغْنَم ، وأعفُّ عن المسأَلة ، وأجود بما ملكتْ يدى ، وأفضِّلُ الْخُطَّةَ الصَّمْماء ، وأما الشِّعْر فستَعْلَم . وأنشد معلَّقته التى نورد طرفاً منها :]

هَلْ غادَر الشُّعراءُ من مُتردَّمِ ؟ أَمْ هَلْ عرفْت الدَّارَ بَعْدَ تَوَهُّمِ؟

يا دارَ عَبْلَةَ بالْجِواءِ تَكَلَّمِي   وعِمِي صَبَاحاً دارَ عَبْلَةَ واسْلَمِي

حُيِّيتَ مِنْ طَلَلٍ تَقَادَمَ عَهْدُه   أَقْوَى وأَقْفَرَ بَعْدَ أُمِّ الْهَيْثَمِ

حَلَّتْ بأَرْضِ ٱلزَّائِرِينَ فأَصْبَحَتْ   عَسِرًا عَلَيَّ طِلاَبُكِ ٱبْنَةَ مَخْرَمِ

عُلِّقْتُها عَرَضاً وأَقْتُلُ قَوْمَها   زَعَماً لَعَمْرُ أَبِيكَ لَيْسَ بِمَزْعَمِ

وَلَقَدْ نَزَلْتِ - فَلاَ تَظُنِّي غَيْرَه   مِنِّي - بِمَنْزِلَةِ ٱلْمُحِبِّ الْمُكْرَمِ

كَيْفَ ٱلْمَزَارُ وَقَدْ تَرَبَّعَ أَهْلُهَا   بِعُنَيْزَتَيْنِ وَأَهْلُنَا بِالْغَيْلَمِ

إِنْ كُنْتِ أَزْمَعْتِ ٱلْفِرَاقَ فإِنَّما   زُمَّتْ رِكابُكُمُ بِلَيْلٍ مُظْلِمِ

ما راعَنِي إِلَّا حَمُولَةُ أَهْلِها   وَسْطَ ٱلدِّيارِ تَسَفُّ حَبَّ الخمخم

فيها اثنتان وأربعون حلوبة   سود كخافية الغراب الأَسحم

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ   عَذْبٍ مُقَبَّلُهُ لَذِيذِ ٱلْمَطْعَمِ

وَكَأَنَّ فَارَةَ تاجِرٍ بِقَسِيمَةٍ   سَبَقَتْ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنَ ٱلْفَمِ

أَوْ رَوْضَةً أُنُفاً تَضَمَّنَ نَبْتَهَا   غَيْثٌ قَلِيلُ ٱلدِّمْنِ لَيْسَ بِمَعْلَمِ

جَادَتْ عَلَيهِ كُلُّ بِكْرٍ حُرَّةٍ   فَتَرَكْنَ كُلَّ قَرَارَةٍ كالدِّرْهَمِ

سَحًّا وَتَسْكاباً فَكُلُّ عَشِيَّةٍ   يَجْرِي عَلَيْهَا ٱلْمَاءُ لَمْ يَتَصَرَّمِ

وَخَلاَ الذُّبَابُ بِهَا فَلَيْسَ بِبَارِحٍ   غَرِدًا كَفِعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّمِ

هَزِجاً يَحُكُّ ذِراعَهُ بِذِرَاعِهِ   قَدْحَ ٱلْمُكِبِّ عَلَى الزِّنَادِ الأَجْذَمِ

تُمْسِي وَتُصْبِحُ فَوْقَ ظَهْرِ حَشِيَّةٍ   وأَبِيتُ فَوْقَ سَرَاةِ أَدْهَمَ مُلْجَمِ

وَحَشِيَّتِي سَرْجٌ عَلَى عَبْلِ ٱلشَّوَى   نَهْدٍ مَرَاكِلُهُ نَبِيلِ ٱلْمَحْزِمِ

هَلْ تُبْلِغَنِّي دَارَهَا شَدَنِيَّةٌ   لُعِنَتْ بِمَحْرُومِ الشَّرابِ مُصَرَّمِ

خَطَّارَةٌ غِبَّ السُّرَى زَيَّافَةٌ   تَطِسُ الإِكَامَ بِذَاتِ خُفٍّ مِيثَمِ
إِنْ تُغْدِفِي دُونِي الْقِنَاعَ فَإِنَّنِي   طَبٌّ بِأَخْذِ الْفَارِسِ الْمُسْتَلْئِمِ
أَثْنِي عَلَيَّ بِمَا عَلِمْتِ فَإِنَّنِي   سَهْلٌ مُخَالَقَتِي إِذَا لَمْ أُظْلَمِ
فَإِذَا ظُلِمْتُ فَإِنَّ ظُلْمِيَ بَاسِلٌ   مُرٌّ مَذَاقَتُهُ كَطَعْمِ الْعَلْقَمِ
وَلَقَدْ شَرِبْتُ مِنَ الْمُدَامَةِ بَعْدَمَا   رَكَدَ الْهَوَاجِرُ بِالْمَشُوفِ الْمُعْلَمِ
بِزُجَاجَةٍ صَفْرَاءَ ذَاتِ أَسِرَّةٍ   قُرِنَتْ بِأَزْهَرَ فِي الشِّمَالِ مُفَدَّمِ
فَإِذَا شَرِبْتُ فَإِنَّنِي مُسْتَهْلِكٌ   مَالِي ، وَعِرْضِي وَافِرٌ لَمْ يُكْلَمِ
وَإِذَا صَحَوْتُ فَمَا أُقَصِّرُ عَنْ نَدًى   وَكَمَا عَلِمْتِ شَمَائِلِي وَتَكَرُّمِي ...
هَلاَّ سَأَلْتِ الْخَيْلَ يَا ابْنَةَ مَالِكٍ   إِنْ كُنْتِ جَاهِلَةً بِمَا لَمْ تَعْلَمِي
إِذْ لَا أَزَالُ عَلَى رِحَالَةِ سَابِحٍ   نَهْدٍ تَعَاوَرُهُ الْكُمَاةُ مُكَلَّمِ
طَوْرًا يُعَرَّضُ لِلطِّعَانِ وَتَارَةً   يَأْوِي إِلَى حَصِدِ الْقِسِيِّ عَرَمْرَمِ
يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الْوَقَائِعَ أَنَّنِي   أَغْشَى الْوَغَى وَأَعِفُّ عِنْدَ الْمَغْنَمِ
فَأَرَى مَغَانِمَ لَوْ أَشَاءُ حَوَيْتُهَا   فَيَصُدُّنِي عَنْهَا الْحَيَا وَتَكَرُّمِي
وَمُدَجَّجٍ كَرِهَ الْكُمَاةُ نِزَالَهُ   لَا مُمْعِنٍ هَرَبًا وَلَا مُسْتَسْلِمِ
جَادَتْ يَدَايَ لَهُ بِعَاجِلِ طَعْنَةٍ   بِمُثَقَّفٍ صَدْقِ الْكُعُوبِ مُقَوَّمِ
فَشَكَكْتُ بِالرُّمْحِ الأَصَمِّ ثِيَابَهُ   لَيْسَ الْكَرِيمُ عَلَى الْقَنَا بِمُحَرَّمِ
وَلَقَدْ ذَكَرْتُكِ وَالرِّمَاحُ نَوَاهِلٌ   مِنِّي وَبِيضُ الْهِنْدِ تَقْطُرُ مِنْ دَمِي
فَوَدِدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لأَنَّهَا   لَمَعَتْ كَبَارِقِ ثَغْرِكِ الْمُتَبَسِّمِ
لَمَّا رَأَيْتُ الْقَوْمَ أَقْبَلَ جَمْعُهُمْ   يَتَذَامَرُونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ

يَدْعون عَنْتَرَ وَالرِّمَاحُ كَأَنَّها أَشْطَانُ بِئرٍ فى لَبَانِ الأَدْهمِ
مَا زِلْتُ أَرْمِيهِمْ بِغُرَّةِ وَجْهِه وَلَبانِهِ حتَّى تَسَرْبَلَ بالدَّمِ
فازْوَرَّ مِنْ وَقْعِ الْقَنَا بِلَبَانِه وَشَكَا إلىَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ
لوْ كانَ يَدْرِى ما الْمُحَاوَرَةُ اشْتَكَى ولَكانَ لوْ علمَ الْكلامَ مُكلِّمِى
وَلَقَدْ شفَى نَفْسى وأَبرأَ سُقْمَهَا قيلُ الْفَوَارس: وَيْكَ ، عَنْتَرَ أَقْدَمِ
ذُلُلٌ رِكابى حَيْثُ شئْتُ ، مُشَايِعِى قَلْبى ، وأَحْفِزُهُ بِأَمْرٍ مُبْرَمِ
وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنْ أَمُوتَ وَلَمْ تَكُنْ لِلْحَرْبِ دَائِرَةٌ على ابْنَىْ ضَمْضمِ
الشَّاتِمَى عِرْضِى وَلَمْ أَشْتِمْهُمَا والنَّاذِرَيْنِ إذَا لمْ الْقَهُمَا دَمى
إنْ يَفْعَلاَ فَلَقَدْ تركتُ أَباهُما جَزَرَ السِّباع وكلّ نَسْر قَشْعَمِ

وإننا ، ونحن نقرأ شعر عنترة بن شداد ، نشعر أننا أمام امرأة هى أشبه شىء بهيلانة التى كانت سبب الحرب بين الإغريق وطروادة : وأننا أمام عبلة التى يثور لأجلها البطل العربى ، ويحارب فى سبيلها ، ويسفك الدماء أنهاراً . وأننا أمام بطل هو أشبه شىء بأخيل طيار الخطى ، الذى يعتزل الحرب لخلاف نشب بينه وبين أغا ممنون ويترك قومه عرضة للتلف ؛ وأننا أمام عنترة يعتزل الحرب لخلاف نشب بينه وبين قبيلته ، لخلاف مرده إلى أن عنترة ابن أمة لا يحق له الانتساب إلى قبيلته ولا يحق له الاقتران بابنة عمه ، ولا يحق له أن يكون حرًّا . ولما اشتد الأمر على عبس وكاد يدركهم التلف صاحوا به : « ويك عنتر أقدم! » فيقدم عنترة حرًّا ، ويبدد جيوش الأعداء ، وينشر الذعر فى البلاد ، على جواد يكاد يتكلم ، وبسيف يجز الرؤوس ، ورمح يخترق الصدور ، ويطير القلوب .

وترى فى عنترة جميع الصفات التى كان يتحلى بها فرسان القرون الوسطى من شجاعة وشرف وقتال فى سبيل هدف أعلى ، ومناصرة للضعيف ، وحب شديد عنيف لفتاة كريمة يعمل جهده فى إرضائها ، وهو شاعر فياض القريحة يلتهب حماسة ، فنظم الشعر يصف مواقعه ، وإذا نفسه يقترب من نفس الملاحم ، فهو يجعلنا فى جوملحمى أبطاله سيف الشاعر ورمحه وساعده ، وخوارقه أعمال الشاعر التى يضخمها الخيال الخلاق ، ويغشى قصصها بالصور والألوان ، فتتوالى على السمع والبصر فى إيجاز بعيد عن التفصيل ، وفى موسيقى شديدة الوقع ، ولغة وثابة فيها عزة الشاعر وثورته ومزاجه العصبى .

الحماسة فى العهد العباسى

(١) دواعى الحماسة العباسية :

وقفت الفتوح فى العهد العباسى ، وأخلد الناس إلى الأمن والراحة فى أغلب الأحيان ، ولولا بعض الحروب والفتن لخمدت جذوة الشعر الحربى فى العالم العربى ، أما تلك الحروب والفتن فمرجعها إلى ما يلى .

قامت الدولة العباسية فى أول عهدها على القوة ، واستعانت بالفرس خاصة والشعوبية عامة ، وبالعرب المناهضين للدولة الأموية ممن يناصرون الهاشميين ، فشالت كفة العرب والعروبة ورجحت كفة الأعاجم ، واقتصر شأن العرب على أن يكونوا عنصراً من العناصر الكثيرة التى احتوتها الإمبراطورية ، وتغلغل الفرس فى صلب الدولة . ولما نقلت العاصمة إلى بغداد تحول وجه الدولة عن البحر المتوسط ، وتوجه شطر فارس ، وأدخل الفرس على العرب سياسة الحكم المطلق ، وهكذا حاكى العباسيون الأكاسرة فى تنظيم دولتهم ، ومالوا إلى الترف والرخاء ، واعتمدوا على من يقوم مقامهم فى مباشرة الأعمال ، ففرعوا المناصب وأكثروا من الدواوين ، وأقاموا على الأقاليم البعيدة عمالاً يأمرون وينهون ، من مثل جعفر ابن يحيى البرمكى ، الذى ولاه الرشيد المغرب كله من أنبار إلى إفريقية ، وأخيه الفضل بن يحيى الذى تولى الشرق كله من شروان إلى أقصى بلاد الترك .

ولم يقف العباسيون عند هذا الحد بل تجاوزوه شيئاً فشيئاً إلى إدخال الفرس والأتراك فى جندهم ، فكان فى الجيش فرقة خراسانية ، وكان فى الجيش أيضاً عدد كبير من الفراغنة أى الأتراك ، جمعهم المعتصم من أسواق بغداد لخوفه على

نفسه من جنده ؛ فكانوا على الخلافة والدولة وبالاً ؛ وقد عملوا على دك أركانها وعلى نشر الفوضى فى البلاد .

ولم تخل البلاد، فى عهد بنى العباس ، من حروب وفتن . أما فى الداخل فقد نهضوا إلى قمع ثورات الراوندية مؤيدى أبى مسلم الخراسانى ، والزنادقة فى العراق وفارس . والعلويين مع ابن طباطبا ، والخرمية[1] مع بابك ، وغيرهم من الذين قاموا فى وجه الأمن والسلام . وأما فى الخارج فقد أكثر الخلفاء من الصوائف والشواتى ، وهى الحملات والغزوات فى الصيف والشتاء ؛ وقد اشتهر فى ذلك أبو جعفر والمهدى والمعتصم ، فحاولوا غزو الممالك الملاصقة ولا سيما بلاد الروم .

وهكذا جرت فى العهد العباسى مواقع تشبه أيام الجاهلية من حيث إنها أصبحت مستوحى الشعراء وموضوع أناشيدهم الحربية . ومن ذلك وقعة « أرشق » للأفشين على بابك الخرمى ، وقد تغنى بها أبو تمام وأشاد فيها بذكر الأفشين ؛ وكذلك وقعة عمورية للمعتصم على ملك الروم تيوفيل ؛ وثورة الزنوج ودخولهم البصرة ، وقد سجل ابن الرومى تاريخها فى شعره ، إلى غير ذلك من المواقع البرية والبحرية التى سنأتى على ذكرها فى دراسة كل شاعر .

(ب) موضوعات الحماسة العباسية وميزاتها :

دار الشعر الحماسى فى العهد العباسى حول وصف تعبئة الجيوش ، وزحفها ، ووصف الأسلحة والخيول والأساطيل والنصر وفرار العدو ، وما إلى ذلك . وقد تتبع الشعراء فى هذا العهد أساليب الأقدمين ومعانيهم ، وزادوا على ذلك أن مزجوا الحكمة بالتصوير الفنى وألفوا بين الوصف وحسن التعليل ، واهتموا للصياغة اهتماماً خاصاً ، كما اهتموا للتزويق والتهويل فى الوصف والتصوير .

---

(١) ظهر بابك الخرمى فى عهد المأمون نحو سنة ٨١٨ م .

(ح) نماذج من الحماسة العباسية :

اشتهر كثيرون فى الشعر الحماسى لهذا العهد ، وإننا سنقتصر على ذكر أبى تمام وأبى الطيب المتنبى .

أبو تمام هو حبيب بن أوس الطائى ، وقد اهتم للحروب والفتن التى نشبت فى أيامه فى شرق العراق وفى غربه ؛ ومن أهمها الحرب التى دارت بين بابك الخرمى والمعتصم . وقد خلع بابك الطاعة واعتصم فى أرض البذ وإقليم أذربيجان ، فسير إليه المعتصم قائده الأفشين عملاً بوصاة أخيه المأمون قبل موته ؛ فسار إليه بجيش حسن الأهبة . ولما التقى الجيشان جرت بينهما مناوشات مختلفة لم تمكن أحدهما من الآخر ، إلى أن كان يوم « أرشق » فالتحم الجيشان التحاماً شديداً ، ولاذ بابك بالفرار فتبعته جماعة الأفشين وأدركته ليلاً ، فهجم الأبطال على الأبطال ، واصطدم الرجال بالرجال ، إلى أن افتر الصباح ، والمعركة لا تزال حامية الوطيس ؛ وامتد النهار إلى أن كان الزوال ، فسقط من جماعة بابك عدد كبير وتشرد الباقون ، وقبض على بابك وقيد إلى المعتصم مغلولاً ؛ فقتل شر قتلة . واستقبل الأفشين أحسن استقبال ، وأدخل إلى القصر فى اعتزاز ، وبذلت له الأموال والجواهر ، وأدخل عليه الشعراء يمدحونه .

وقد نظم أبو تمام فى فتنة بابك الخرمى شعراً كثيراً ؛ من أروعه قصيدة لامية قالها فى انتصار الأفشين ، وصور حال الناس القلقة من جراء بطش بابك وسطوته فى البلاد ، ثم راح يصف يوم أرشق وما جرّ من الوبال على ذلك الداهية الذى مات المأمون وهو عاجز عنه ، والذى دوّخ البلاد بجيش جمعه من الترك والفرس وكل من نقم على بنى العباس ؛ وراح أبو تمام يتتبع الموقعة ، ويحدد زمانها ومكانها بدقة ، ويذكر حركات الجيشين وقد استبسلا استبسالاً عظيما ، ويتدفق مع المسلمين تدفقاً عاطفياً جباراً ، ويرسل مع كل لفظة حمماً من بركان

نفسه ، ويحمل كل عبارة ما لا تطيق من المعانى الحربية الشديدة ، ومن الأخيلة الضخمة ، ومن الموسيقى الهويلية ، ومن المقارنات اللفظية والمعنوية المؤثرة ، ويقول :

يا يَوْمَ أَرشقَ كنت رَشْقَ مَنِيَّةٍ ... للخرميَّةِ ، صائبَ الآجالِ
أَسْرَى بنو الإِسْلاَمِ فِيهِ وأَدْلجوا ... بقلوبِ أُسدٍ فى صدور رجالِ
لمَّا رآهم بابَكٌ دون المُنَى ... هجرَ الغوايةَ بعد طولِ ضِيَالِ
يومٌ أَضاءَ به الزَّمَانُ وفتّحت ... فيه الأَسنَّةُ زهرةَ الآمالِ
وسَروْا بقارعة البياتِ فزُحزِحوا ... بقِراع لا صَلِفٍ ولا مُخْتَالِ
نزَلَتْ مَلاَئِكَةُ السَّماءِ عَلَيْهم ... لمَّا تداعى المسلمونَ : نَزَالِ
لَمْ يُكْسَ شَخْصٌ فَيْئَهُ حتَّى رَمَى ... وَقْتُ الزَّوَالِ نَعِيمَهُمْ بزوالِ
فَالْبَذُّ أَغْبَرُ دَارِسُ الأَطلالِ ... بَيدِ الرَّدى أَكلٌ من الآكالِ
أَلْوَتْ بِهِ ، يومَ الخميس ، كتائِبٌ ... أَرْسَلْنَهُ مثلاً منَ الأَمْثَالِ
كَمْ صارمٍ عَضْبٍ أَنافَ على فَتًى ... منهم لأَعباءِ الوَغَى حمَّالِ
سَبَقَ المشِيبُ إِليهِ حتَّى ابْتَزَّهُ ... وطَنَ النُّهى من مَفْرِقٍ وقَذَالِ
قَاسَى حياةَ الكَلْبِ إلاَّ أَنَّهُ ... قَدْ مَاتَ صَبْرًا مِيتَةَ الرِّئْبَالِ

وهكذا يسير أبو تمام فى ملحمته الحربية من مشهد إلى مشهد ، متمثلاً ، هائج العاطفة ، هائج الخيال ؛ ينتصب أمام ذلك اليوم بكل شطاطه ، فيناجيه ، ويشخصه ، ويكاد ينتشى لذكراه ، ويحار كيف يصوره ، فينتزع الصور من الألفاظ انتزاعاً ، ويقيم التنازع بين الألفاظ والوجوه التعبيرية والبيانية ، وإذا أنت أمام قصيدة قد تدرعت ألفاظها ، وتتابعت أبياتها ، جيوشاً جيوشاً ، تقودها العاطفة الصاخبة على أجنحة خيال أشد من الخيول

انطلاقاً ، وإذا أنت أمام حرب مشخصة أحسن تشخيص .

ومن الأحداث الكبرى التي شغلت أبا تمام وفجرت قريحته الشعرية فتح عمورية ، وذلك أن الروم اغتنموا فرصة انشغال العرب بحروب بابك ، فجهز تيوفيل إمبراطور الروم سنة ٨٣٧ م جيشاً عظيماً من مائة ألف مقاتل ، وزحف به قاصداً بلاد العرب ، ففتح زبطرة وأعمل السيف فى رقاب أهلها ، كما أعمل النار فى ديارها ، واستاق إلى القسطنطينية مالاً وغنائم ، ولما بلغ الخبر أذنى الخليفة ارتاع له ، وهبّ من ساعته فعبأ العسكر ، ونادى بقواده الكبار من مثل الأفشين ، وبغا ، وأشناس ، وجعفر بن دينار ، وقسم جيشه كراديس ، وجهزه بالعدة والسلاح ، وكان على أهبة السير إلى عمورية حين نهض المنجمون ونهوه عن الحرب احتساباً منهم أنه طالع نحس ، وأن عمورية لن تفتح إلا فى وقت إدراك التين والعنب ، فلم يعبأ المعتصم بذلك بل زحف زحفاً شديداً ، حتى بلغ عمورية وحاصرها حصاراً شديداً مدة خمسة عشر يوماً ، ورمى أسوارها وأبراجها بالمجانيق وسائر الآلات الحربية المعروفة لذلك العهد ، فخرت الأسوار وانهال الجيش العربى على المدينة ، وقتل من الروم خلقاً كثيراً ، واستاق عدداً من القواد كما رجع بمال وغنائم . وقد اهتزت البلاد لتلك الموقعة اهتزازاً شديداً واهتزت قريحة أبى تمام اهتزازاً عنيفاً ، وانتصب فى سامرّا يمدح المعتصم ويصف الموقعة ويقول :

السَّيْفُ أَصْدَقُ أَنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ ... فِى حَدِّهِ الْحَدُّ بَيْنَ الْجِدِّ واللَّعِبِ

بيضُ الصَّفَائِحِ لاسُودُ الصَّحَائِفِ فِى ... مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشَّكِّ والرِّيَبِ

وَالْعِلْمُ فِى شُهُبِ الأَرْمَاحِ لَامِعَةً ... بَيْنَ الْخَمِيسَيْنِ لا فِى السَّبْعَةِ الشُّهُبِ

أَيْنَ الرِّوَايَةَ بَلْ أَيْنَ النُّجُومَ وَمَا ... صاغُوهُ مِنْ زُخْرُفٍ فِيهَا وَمِنْ كَذِبِ

تَخَرُّصًا وَأَحَادِيثاً مُلَفَّقَةً ... لَيْسَتْ بِنَبْعٍ ،إِذَا عُدَّتْ ،وَلَا غَرَبِ

يا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّورِيَّةَ انْصَرَفَتْ ... عنْكَ المُنَى حُفَّلاً مَعْسُولَةَ الحَلَبِ

لَقَدْ تَرَكْتَ أَمِيرَ المُؤْمِنِينَ بِهَا ... لِلنَّارِ يَوْماً ذَلِيلَ الصَّخْرِ وَالْخَشَبِ

غَادَرْتَ فِيهَا بَهِيمَ اللَّيْلِ وَهْوَ ضُحًى ... يَشُلُّه وَسْطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ

حتَّى كأَنَّ جَلَابِيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ ... عَنْ لَوْنِها ، أَوْ كأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ

ضَوْءٌ مِنَ النَّارِ ، والظَّلْمَاءُ عاكِفَةٌ ... وَظُلْمَةٌ مِنْ دُخَانٍ فِي ضُحًى شَحِبِ

فَالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا ،وَقَدْ أَفَلَتْ ... وَالشَّمْسُ وَاجِبَةٌ فِي ذَا ، وَلَمْ تَجِبِ

تَدْبِيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ ... لِلهِ مُرْتَقِبٍ فِي اللهِ مُرْتَهِبِ

لَمْ يَغْزُ قَوماً ،وَلَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ ، ... إِلَّا تَقَدَّمَهُ جَيْشٌ مِنَ الرُّعُبِ

لَوْ لَمْ يَقُدْ جَحْفَلًا يَوْمَ الوَغَى لَغَدَا ... مِنْ نَفْسِهِ وَحْدَهَا فِي جَحْفَلٍ لَجِبِ

هذه أبيات من القصيدة الطويلة التى نظمها أبو تمام فى فتح عمورية ، وقد حلق فيها تحليق النسور ، وحاول أن يربط الأحداث التاريخية بأهداب عاطفته الجياشة ، وأن ينطلق مدوياً ، مصوراً ، راسماً بريشته الآفاق والأجواء ، وإذا أنت أمام مشهد هول تقشعر له الأبدان ، وإذا أنت فى ليل من عجاج وظلام ، وفى نهار من لهب ونيران . وإذا النيران تمتد وتلتهم وتتصاعد فى الجو لهباً ودخاناً ، وإذا أنت أمام شاعر يمزج الحقيقة بالعاطفة الهدارة ، والخيال الحربى المندفع ، فيكثر من الطباق والجناس ، ويكثر من استعمال الألفاظ الشديدة الوقع ، وإذا الأبيات كتائب كتائب ، والعبارات صلصلة سيوف ورماح .

وهكذا يتجلى أبو تمام رجل حماسة ورجل اندفاع ، ينظم وهو شديد الانفعال ، شديد التطلب للتفكير المركب ، والصور المتناقضة المركبة فى تناقضها ، والعبارات المحبوكة حبكاً معقداً ، والحافلة بالموسيقى الهدارة وبكل غريب صادع .

وإنه ليضيق بنا المقام لو أردنا تتبع أبي تمام فى شعره الحماسى الكثير ، وإننا نكتفى بما أوردنا لما فيه من الدلالة على ما لم نورد .

أما أبو الطيب المتنبي ، وقد أتينا على ذكره فى باب الفخر الذاتى ، فهو شاعر الحماسة الحمدانية ، وقد فسحت له البيئة مجالاً واسعاً لذلك ، لأن حروب الحمدانيين مع الروم دامت نحو ستين عاماً ، وكان لها أصداء واسعة فى طول البلاد وعرضها . وقد استخلص الدكتور زكى المحاسنى من كتابات المؤرخين أوصاف جيشى الروم والعرب فقال : « إن جند سيف الدولة كانوا مغاوير محبين للحرب . . . ولم يكن لباس الجندى العربى مختلفاً عن لباس الجندى اليونانى ، الذى سلاحه قوس ونبل ودرع ومزراق وسيف وفأس للمعركة ، وإلى ذلك مغفر يستر الرأس ، ودرع من المعدن تغطى الجذع ، وجانبيات تستر رجليه والساعدين ، ومقاود من الفولاذ للخيل . وكانت أغماد السيوف العربية مرصعة بالفضة ، وسروج الخيول العربية مثل سروج خيول الروم . وكان العرب زمن سيف الدولة يلبسون ضروباً من الدروع اسمها الجوشن تغطى الفرس . . . ولم يكن شىء يختلف بين الروم والعرب فى نظام الحرب سوى الهجوم ، فإن الروم تعودوا مع البلغار والروس الهجوم المنظم بخلاف العرب . أما باقى فنون الحرب فكانت متشابهة كل التشابه عند الفريقين ... ولم يكن العرب مثل جنود البيزنطيين ينقلون أداة حروبهم على العجل والدواب وإنما كانت الإبل لحمل أثقالهم . وما كانوا ، ورحى المعركة تدور ، ليستعينوا بالطبل الكبير أو القرون النافخة ، وإنما كانوا يقرعون على طبول صغيرة قرعاً عاجلاً متتابعاً . وهم إذا ساروا قلقلوا أقتابهم وعدتهم فزحف جيشهم مزيناً بالأعلام الملونة على رؤوس الرماح قصاصات مضفورة تلوح فوق رماحه المنصوبة التى لا ينتهى الطرف إلى مداها . وكانوا جميعاً مزينين بهذه الأعلام الملونة ، وهم إذا ساروا وثار الغبار وراءهم ، ترنموا فى مسيرهم بأغان مقرونة بصوت الطبل الغامض المبهم وقرع الصنوج ، وكان الفرسان المسلحون ،

لكي يسرعوا في السير ، يزحف مع كل فارس منهم جندي راجل وراءه » .

أما أهم المعارك التي جرت بين سيف الدولة والروم فمعركة خرشنة ، ومعركة الحدث الحمراء ، ومعركة الدرب وقد سجلها المتنبي في شعره أروع تسجيل . أما معركة خرشنة فقد جرت سنة ٩٥٠ م وهي مزدوجة ، بدأت بفوز العرب على الروم ثم بفوز الروم على العرب ، وقد اتخذ الطرفان الحيلة الحربية طريقاً إلى النصر ؛ أما العرب فقد ساروا بجيش جرار ، وكمنوا في بطن اللقان بالقرب من خرشنة ، وتقدم سيف الدولة بسرية واحدة يريد الدمستق وجيشه ، فحسب الدمستق أن جيش العرب قليل العَدد والعُدد فهاجمه بعسكره مهاجمة عنيفة ، ولم يحسب للطوارئ حساباً ؛ وفيما هو كذلك ثار عسكر العرب الكامن في كل مكان وانتفضت الأرض عن رجال وأسلحة ملأت الآفاق ، وإذا الضربة هائلة ، وإذا الروم في انحطام شديد ، وإذا العرب على طريق العودة في نشوة أنستهم أن الروم جمعوا صفوفهم ، وكمنوا لهم في طريق ضيقة وانهالوا عليهم ضرباً وتقتيلا ، ففروا إلى بلادهم هاربين . ولما وصلوا إليها وقف المتنبي مبوقاً ببوق الظفر ، مشيداً ببطولة رجال أمير حلب ، وراح يصف تلك المعركة ، ويتتبع حركات الزحف العربي ، ويصف ضعف نظر الدمستق في الأمور ، وانكسار الروم ، وبسالة الجيش العربي ، ويمعن في وصف الخيول ، ويخرج من الهزيمة الأخيرة بنصر معنوي للأمير العربي ، ويقول :

غَيْرِي بأكثرِ هٰذا النَّاسِ يَنْخَدِعُ ... إنْ قاتَلُوا جَبُنُوا أوحدَّثُوا شَجُعُوا
والمشرفيَّـــةُ لا زالَـتْ مُشَرَّفَةً ... دَوَاءُ كُلِّ كريمٍ أَوْ هِيَ ٱلوَجَعُ
وفارِسُ الْخَيْلِ مَنْ خَفَّتْ فوقَّرها ... في الدَّرْبِ والدَّمُ في أعْطافه دُفَعُ
بالْجَيْشِ تَمْتَنِعُ السَّاداتُ كُلُّهُمُ ... والجيشُ بابنِ أبي الهَيْجاءِ يَمْتَنِعُ
قَادَ المقَانِبَ أَقْصَى شُرْبِها نَهَلٌ ... عَلَى الشَّكِيمِ وأَدْنَى سَيْرِها سَرَعُ

وأما معركة الحدث الحمراء ، فقد جرت بعد أن هدم الروم ذلك الثغر وقوّضوا أركانه ، وبعد أن باشر سيف الدولة إعادة البناء . فقد هاجمه الروم ، وهو فى حومة العمل ، وعلى رأسهم برداس فوكاس . ونشبت الحرب هائلة بين الفريقين ، ودامت من طلوع الشمس إلى غروبها ، وأسفرت أخيراً عن فوز الجيش العربى . ولم يترك سيف الدولة مدينة الحدث حتى أتم بناء سورها سنة ٩٥٤ م . فتناول المتنبى ذلك الحادث العظيم ونظم فيه ميميته الشهيرة :

عَلى قَدْرِ أهل العزم تأْتِى العزائمُ　　وتأْتِى على قَدْرِ الكِرامِ المكارمُ

وقد افتتح القصيدة بإظهار عظمة سيف الدولة وما فى قلبه من شجاعة وهمة ، ثم انتقل إلى الحدث وإذا هى حمراء من دم الأعادى ، وإذا سيف الدولة يبنيها فى حومة الوغى ، والروم يهاجمون بجيش جرار ، تجمع فيه كل لسن وأمة ، بجيش يغطيه الحديد ، وتتصاعد زمازمه إلى أعالى الفضاء :

أَتَوْكَ يجرُّونَ الحديدَ كأنَّما　　سَرَوْا بجيادٍ ما لَهُنَّ قوائمُ
إذا بَرَقُوا لم تُعْرَفِ البِيضُ منهُمُ　　ثِيابُهُمُ من مِثْلِها والعمائمُ
خميسٌ بشرقِ الأرضِ والغربِ زَحْفُهُ　　وفى أُذنِ الجوزاءِ منْهُ زمازمُ
تَجَمَّعَ فيهِ كُلُّ لِسْنٍ وأُمَّةٍ　　فما يُفهِمُ الحُدَّاثَ إلاَّ التراجمُ

والتحم القتال شديداً ، ودارت الدوائر على جيش الروم ، فوقف سيف الدولة باسماً ، وقد ضم جناحى العدو على القلب ضمة عنيفة ، وراح يطلق الضربات إثر الضربات ، واستغنى عن الرماح بالسيوف :

ومَنْ طلَبَ الفتحَ الجليلَ فإنَّما　　مفاتيحُه البيضُ الخِفَافُ الصَّوارِمُ

وهنا وقف المتنبى يصف فى هياج ظاهر ، وفى لهجة مطوية على الإعجاب

بالعظمة والبطولة ، وإذا ألفاظه متجالدة ، وحروفه مدوية ، ومعانيه متتابعة تتابع السيل الجارف . فى غلو خيالى لا يحده حد ، حتى قال واصفاً الخيل :

إذا زَلِقَتْ مَشَّيْتَهَا بِبُطُونِها كَما تَتَمشَّى فى ٱلصَّعِيدِ الأَراقِمُ

وهكذا انتهت المعركة بقصيدة ليست دون المعركة هولاً وخلوداً .

وأما معركة الدرب . فمرجع أسبابها إلى أن البطريق أقسم عند ملكه أنه يعارض سيف الدولة فى الدرب ، وسأله أن ينجده ببطارقته وعدده وعدده ، ففعل ، فخاب ظنه . واندحر واندحرت معه جيوشه ؛ وكانت هذه المعركة آخر المعارك الظافرة لسيف الدولة على الروم ، فنظم المتنبي فيها قصيدة كانت آخر ما أنشده بحلب ، ومطلعها :

عُقْبى اليمينِ عَلَى عُقْبى الوغَى نَدَمُ ماذا يَزِيدُك فى إقْدَامِكَ القَسَمُ

وقد تناول المتنبي قسم البطريق وراح يبين له كيف حلف على الظفر بسيف الدولة ، فاضطره إلى نقض يمينه فتى أراه من شدة الضرب ما أذهله عن قسمه وأنساه كلامه ووعده ، فتى تكل السيوف وهو لا يكل :

كُلُّ السُّيوفِ إذَا طَالَ الضِّرَاب بِها يَمَسُّها ـ غيرَ سيفِ الدَّوْلةِ ـ السَّأَمِ

فتى ظن الروم أنه كالمصباح فى حلب إذا فارقها إليهم أظلمت وانتقض أهلها عليه وشقوا عصا الطاعة ، ولم يعلموا أنه الشمس التى تعم كل مكان بنورها ، وقد مشى إليهم بجيش بعيد الأطراف ، وخيل حميت حدائد لجمها من شدة الحر ، حتى كوتها الحكم كالمياسيم ؛ ولما وصل إلى سمنين وردت خيوله بحيرتها فسمع للجمها نشيش عندما أصابها الماء وأطفأ حرارتها ! ثم انتقل إلى قرى هنريط فجالت الخيل فيها للغارة والقتل ، وجالت السيوف لتقطيع الرؤوس ، فهرب

العدوّ واجتاز نهر أرسناس عله يجد ملجأ ، فلم يجد ، لأن خيول الجيش العربى أصبحت سفناً تمخر فى عباب النهر ، مندفعة أشد اندفاع .

وها هوذا المتنبى فى حومة القتال يطلق صوته ويقول مخاطباً أمير حلب :

صَدَمْتَهُمْ بخميسٍ أنْتَ غُرَّتُه ... وسمهريَّتُه فى وجْهِه غَمَمُ
فكانَ أثْبَتَ ما فيهمْ جُسُومُهُمُ ... يَسْقُطْنَ حَوْلَكَ والأَرواحُ تنْهَزِمُ
والأَعوجيَّةُ ملءُ الطُّرْقِ خَلْفَهُمُ ... والمشرفيَّةُ ملءُ اليَوْمِ فَوقَهُم
إذا توافَقَتِ الضرْباتُ صاعِدَةً ... توَافقَتْ قُلَلٌ فى الجوِّ تَصْطَدِمُ

وهكذا ينطلق المتنبى فى جيشان عاطفة وثورة خيال ، وهكذا يختتم ملحمته الحمدانية بقصيدة هى من أروع قصائده ، وهكذا « خلد ذكر الحروب ، ووصف تلاوين الفروسية وتهاويلها ، فى دنيا الحمدانيين مع الروم ، وكتب بيده أكبر ملحمة للعرب والإسلام بأفخم أسلوب وأعذب بيان » .

شعر الحماسة بعد أبى الطيب المتنبى

واصل الشعر الحماسى سيره بعد أبى الطيب ، فكان عند أبى فراس الحمدانى ثورة نفسية ممزوجة بذل الأسر ، وكان عند صفى الدين الحلى انتفاضة شديدة ، ولا سيما فى قصيدته النونية المشهورة التى أصبحت نشيد القومية العربية من بعده ، وكان عند ابن هانئ الأندلسى وعند الشيخ ناصيف اليازجى تقليداً لشعر المتنبى ، وكان عند محمود سامى البارودى انطلاقات عسكرية ، وكان عند أحمد شوقى وخليل مطران نماذج تاريخية اجتماعية ، وكان فى كل دولة عربية أناشيد قومية وتنفسات تحررية . وإنه لا يسعنا التطويل فى مثل هذا الكتيب ، ولنا فى ما بسطناه نماذج كافية على ما فطرت عليه الروح العربية وعلى ما تصبو إليه ، ثم على ما قامت به من جليل الأعمال فى ميادين البطولة ومجالات المجد والخلود . وعلى ضيق المجال ليس لنا بد من كلمة نقولها فى شاعر معاصر هو فى نظرنا أبو الملحمة العربية الحديثة ، وهو فى نظرنا القمة التى وصل إليها الشعر الملحمى الواعى ، والشعر الملحمى الموسوعى ، والشعر الملحمى الذى يحمل ثقافة عصور ، وفلسفة دهور ، والشعر الملحمى الذى يعالج قضايا العرب الاجتماعية فى حرنار وفصاحة نور ، والشعر الملحمى الذى يوجه ويقود فى بلاغة عربية أصيلة ، وفى بيان عربى رائع ، وفى مراعاة شديدة لنظام القصيدة العربية الكلاسيكية ، وفى تدفق ينبوعى يضطرب فى لون محلى ، وفى تنوع غنى ، وفى جو من البطولة المعنوية والبطولة المادية . أما ذلك الشاعر فهو « بولس سلامة » ، وأما ملحمته الكبرى فهى « ملحمة عيد الرياض » التى ظهرت فى هذه الأيام الأخيرة ، ونحن آخذون فى طبع هذا الكتيب ، والتى نظمها صاحبها فى مدة ثمانية أشهر ،

واستغرق طبعها نحو عشرة أشهر والتى وقعت فى نحو ٦٠٠ صفحة من القطع الكبير ، وفى نحو ثمانية آلاف بيت من الشعر ، كلها على البحر الخفيف .

كان الشاعر بولس سلامة قد أتحف البلاد العربية بملحمة « عيد الغدير » وها هوذا يتحفها اليوم بملحمة « عيد الرياض » ، وقد تغنى فى الأولى بالإمام علىّ ، وتغنى فى الثانية بمآثر ابن سعود لما لقى فيه من بطولة تلتحق بعالم الخوارق ، وسخاء حاتمى ، وذكاء فطرى لماح ، وعدل وحلم ووفاء ، واتضاع وخفض جناح ، ورقة وتقوى .

قال بولس سلامة فى مقدمته : « ولعمرى إن هذه الملحمة لترتفع عن الحادثة اليومية وجرى المعتاد ، ولا يقع مثلها على رصفات الشوارع أو فوق أدراج الفنادق كل يوم ، بل لم يقع مثلها فى أيام العرب . فأين منها حرب البسوس ، أو حرب داحس والغبراء ؟ فإن عنترة ، على شجاعته ، فى زمن يقى فرسانه دروع وأتراس ، لا يوازى ابن سعود فاتحاً صدره للرصاص والقنابل ، بل أين منها حرب طروادة نفسها ، لولا الخيال الهوميرى الذى لم يقتصر على إنزال آلهة اليونان إلى المعمعان ، بل غمر بالألوهة أبطاله . فإذا كان لأمة الإغريق أن تباهينا بعبقرية شاعرها وإبداعه فى الخلق والاختلاق ، فإنا نباهيها ببطولة عبد العزيز التى لا يضيرها صدق الواقع » .

ومن ثم فقد اعتمد الشاعر الأصل التاريخى ، وراح يلقى عليه من شخصيته القوية ، وصادق انفعالاته ، وروعة خياله ، ما رفعه إلى مستوى عال من العوالم الملحمية . وراح الشاعر يسرد الأحداث التاريخية المتعلقة بابن سعود ، وراح يمزج السرد بانفلاتات شعرية ، واستطرادات وجدانية ، وما إلى ذلك مما يريح القارئ والسامع ، وراح ينظم القصائد الطويلة فى جزالة وسهولة عجيبتين ، وفى تدفق شعرى رائع ، وهو كلما أطال أجاد ، وكلما تدفق ازداد انفجاراً ، وكلما انفجر سبح شعره فى عالم من الروعة الأخاذة ، التى تجمع البداوة إلى الحضارة والفطرة ،

إلى الفلسفة والحكمة وعلوم الاجتماع . وهكذا كانت ملحمة عيد الرياض موسوعة تاريخية فلسفية ، وهكذا كانت مزيجاً من إيمان وحماسة ؛ وهكذا كانت صلصلة سيوف ، ورفرفة أجنحة ، وخفقة قلب حي ، وجمالاً شعرياً على كل حال . وإليك نموذجاً من نشيدها الأول ، وعنوانه « أحلام الجزيرة » :

بَعَثَ الحربَ «دَاحِسٌ» فاستطارَتْ ... وأَمَدَّتْ بالْعِثْيَرِ « الْغَبْرَاءُ »
أمطرتْ نارَهَا نجيعاً ودَمْعاً ... ومنَ الحافِرِيْنِ ذَرَّ البَلاءُ
وبنو «العبس» جَمْرَةُ العُرْبِ لولا ... عَنْتَرٌ لاعترى سناها انطفاءُ
إذْ يُنَادونَ ويْلَكَ عَنْتَر أقدِمْ ... وعزيز على النجيد النِّداءُ
المروءاتُ فى دِماه استجابَتْ ... واستشاطَ الفؤادُ والأَحْنَاءُ
وَتنشَّرتْ أَوْدَاجُهُ والْجُفُونُ الـ ... حُمْرُ أَجَّتْ فَدُونَهَا الرَّمْضَاءُ
فرمَى فى العجاجِ مُهْرا قَتاماً ... كانَ لَيْلاً فحمَّرَتْهُ الدِّمَاءُ
قُنْفذًا عادَ مِنْ وُقوعِ السِّهام الزُّ ... رقِ غصَّتْ بسَمَيْلها الأَعْضَاءُ
كادَ يبكى من الجراحات لولا ... أَنَّ فى سَرْجِهِ اَستقَرَّ الرَّجاءُ
فتعجَّب لأَدْهَمينِ أَطلَّت ... منهما فى المعامعِ الأَضْوَاءُ
قد يذرُّ الضياءُ من جنحِ ليل ... ومن الْخَيْرِ قد يطلُّ الشَّقاءُ
لم يروِّع « أبا الفوارس » جَيْشٌ ... كُلَّما ازْدَادَ زَادَ منهُ المضاءُ
خَلْفَهُ طَرْفُ عبلةٍ وَلَمَاهَا ... فالمنايا لطــرْفه إغْرَاءُ !